قواعد تربوية

رمضان ١٤٤٤

تقديم

أنا هيد بنت عيد السمبري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

بسم الله الرحمن الرحيم

يوم الخميس 15 رمضان

(سورة الإسراء 36)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعل القرآن الكريم ربيعًا لقلوبنا، ونورًا لصدورنا وجلاء لأحزاننا وهمومنا، اللهم آمين.

هذا القرآن العظيم الذي من به رب العالمين على المسلمين، بل على العالمين، فيه إرشاد متين يصل به الإنسان على الطريق المستقيم، قواعد في تربية النفس وتربية المجتمع وإصلاحه لا يمكن أن تكون إلا في هذا الكتاب العظيم الذي هو كلام رب العالمين. في كلمات محدودة تجد تربية عظيمة تصلح العالمين، لكن التقصير منا في استخراج كنوزه وفي بيانه لنفسنا ولمن نربيهم، فنسأل الله أن يغفر لنا تقصيرنا في حق هذا الكتاب، وأن يعيننا على الإقبال عليه إقبال من يستغني بهذا الكتاب عن غيره، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: "ليسَ مِنَّا مَن لَمْ يَتَغَنَّ بالقُرْآنِ" قال البخاري: يتغنى بمعنى يستغني، وهذا أحد معاني يتغنى بالقرآن، يعني يستغني به عن غيره، فكل من أراد التربية لنفسه، كل من أراد منهج تربوي لأبنائه ولمجتمعه ولمن تحت يده فليقبل على القرآن إقبال الصادق المستغني بالقرآن عن غيره، وسيجد من نعماء الله ومن عطاء الله، ومن الفهم، يوسع الله له في الفهم، ويجد في كلام أهل العلم ما يصل به إلى الحق، فالحمد لله رب العالمين، الحمد لله الذي أنزل الكتاب، الحمد لله الذي جعله بلغة العرب، الحمد لله الذي جعلنا من العرب الذين

يفهمون الكتاب ويذوقون معانيه وبلاغته، الحمد لله الذي جعل من السلف ميراث عظيم من العلم. كم ترك الأول للآخر، كم ترك هؤلاء العلماء المباركين لمن ورائهم من المسلمين، بل من العالمين، تركوا علوما لو انكب عليها طالبي العلم لوجدوا خيرا كثيرا.

اليوم إن شاء الله نقف مع آية من سورة، السورة بنفسها مليئة بالتربويات، وبدون مبالغة نستطيع أن نقول **منهج تربوي كامل في سورة الإسراء**، فيها من العلم والحكمة ما يفيض على الخلق ويحتاجوا من أجل بيانه أعمارا تستحق هذه السورة، كباقي سور القرآن، لكن أن يخصها المربين بمزيد اهتمام وبمزيد عناية لما فيها من وصايا وإرشادات بينات واضحات، فالحمد لله رب العالمين.

سنختار من بين هذه الوصايا العظيمة، ومن بين هذه الإرشادات المباركة، هذه الآية التي هي بمثابة **قاعدة يربي عليها الصغير والكبير نفسه، بل يربي عليها المجتمع كاملا نفسه**، وهي الآية السادسة والثلاثون من سورة الإسراء، نسمعها ثم نأخذ شيء من آدابها وعلومها بحيث نصل بعد ذلك إلى قاعدة نربي أنفسنا عليها:

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36))

انظر كيف الآية في جملها مختصرة، ثم إذا أردنا أن نفهم معانيها ونصل إلى حقيقة هذه الإرشادات سنجد علوما عظيمة:

أولا، هذه الآية من ضمن مجموعة وصايا أوصى الله عز وجل بها عباده، وأرشدهم في سورة الإسراء، وأيضا هناك وصايا في سورة الأنعام، هذه الوصايا اختصت بالإصلاح، وصايا رب العالمين أوصى

بها المؤمنين لإصلاحهم. وكان من بين الأمور المهمة أن نهى عن ثلاثة أمور، أولها (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) ثم يأتي بعدها (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا) وما بعدها أيضا يبين كيف أن هناك مأمورات ومنهيات. موضوعنا اليوم في آية (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)

ونبدأ **بمعنى كلمة تقف** المأخوذة من قولهم قفوت أثر فلان، اقفُ إذا اتبعت أثره، لذلك القبيلة التي تعرف باتباع آثار الناس ويستدلون بها على أحوال الناس يسمونها القافة لأنها تقفو الأثر، ومن هنا سمي القفى للإنسان، لأنه خلف الإنسان كأنه شيء يتبعه ويقفوه، إذن القفو الاتباع، يقال قفاه يقفوه إذا اتبعه، وهو معنى واضح.

لا تقف ماذا؟ ما ليس لك به علم، ما هو الشيء الذي ليس لك به علم؟ هنا يتبين أنها الأمور التي هي خواطر نفسية لا دليل عليها، ولا غلبة ظن بها.

ويندرج تحت هذا أمور عظيمة، فمن ذلك عقائد يحملها الإنسان في نفسه في رب العالمين وفي الأنبياء، وفي الحياة، إنما قفا من قبله وسار واتبع من قبله بدون أن يمحص هذا القول أو هذا الاعتقاد، ومن قبله يمكن أن يكون الأسلاف، الآباء، القبائل، العادات، ويمكن أن يكون المتابعين، المشهورين، فيحمل الإنسان نفسه على متابعة هؤلاء فيما يعتقدون، فيما ينشرون من عقائد، بل إنك تجد في هذه الوسائل خبرا ثم نجد تعليقا يسيء إلى هذا الخبر أو يسيء إلى صاحب الخبر، أو يتهمه في نيته، ونجد من بعده يتابع ويقفو كلام الأول، فإذا الأول أو الثاني تعدى على صاحب المنشور أو تعدى على الحق الموجود فيه تجد الباقين يتابعونه كأنهم ماشية! يساقون ويسيرون على نهج قائدهم.

فهذا أمر خطير؛ أن نتبع عقائد أو اعتقادات ليس لنا بها علم، إما مدحا وإما ذما، إما قبولا وإما رفضا، وهنا أردنا أن نبين أن الإنسان لما يقلد لا بد أن يعرف، خصوصا في المسائل المتصلة بعقيدته، أن يعرف مجمل الحق، أن يفهم مجمل الحق، أن يتبع من يثق فيه ويفهم في اتباعه، لكن يقفو ما ليس له به علم، مجرد فكرة انتشرت على ألسنة أقوام هو يتابعها (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ).

وفي سورة الجاثية: (إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ) وفي سورة النحل: (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ)، هذا أمر خطير! هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟! هذا من أخطر أنواع القفو وهو القفو في الاعتقادات، في الله، في الدين، في الرسول ﷺ، في وجودنا في الحياة. اعتقادات ربما تراها بسيطة لكنها خطيرة لأنك ستُسأل عنها بالتفصيل. من أين لك علم في أن هذا هو الحق؟

يقول الإنسان هذا ما اشتهر، هذا الكلام الذي وجدناه، نقول هل سمعت ممن تثق بعلمه وتعلم أنه من علماء المسلمين، وأنت تعرف تفرق بين علماء المسلمين وبين عوام المسلمين، تعرف تفرق بين علماء المسلمين والمشاهير في أدوات التواصل، تعرف تفرق بين كلام الله وكلام رسوله وكلام الصحابة الكرام وكلام العلماء الكرام، وبين الكلام الذي هو مجرد إنشاء، والكلام الذي يكون مجرد ترجمة أحيانا لكلام النصارى واليهود، يترجمه وينشره بين المسلمين فيعجبون به ويتبنونه وينشرونه (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) في عقيدتك، (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ).

وأنت تتكلم عن الله، لا تعبر بأي تعبيرات تجدها منتشرة قبل أن تتحقق هل يصح أن أتكلم عن الله بهذه الصيغة، هل أصفه بهذا الوصف؟ هل هذا اسم من أسمائه، هل يصح الإخبار عن الله بهذه الأخبار. لا تنسَ هل

عنكم من علم فتخرجوه لنا؟ هذا أحد الأنواع الداخلة في القفو المنهي عنه؛ أن تجد سائرين قالوا عن رب العالمين كذا، ادعوا كذا، قالوا أن ربنا غفور رحيم فلا تتكلموا عن عذابه، قالوا أن ربنا غفور رحيم فلا تقولوا عن الكفار، الذين حكمهم أنهم خالدين في النار، أنهم كفرة، لا تقولوا أن هناك نفاق أكبر، وأن المنافق نفاقا أكبرا يكون في الدرك الأسفل من النار.

وهنا نؤكد أن أصحاب الكفر الأصلي حكم عليهم رب العالمين، لسنا نحن الحاكمين، أما أصحاب النفاق الأكبر المتخفين، المظهرين للإسلام والمبطنين للنفاق، هذا حتى النبي ﷺ لم يصرح به إلا لحذيفة رضي الله عنه، أمين سر النبي ﷺ.

فنحن نتأدب بآداب الإسلام ونعرف في كل تصرف من تصرفاتنا أن هذا التصرف مبني على هذا الإرشاد الرباني، على هذا الإرشاد النبوي، يجب أن نقفو لكن نقفو ونتبع بعلم. الآية لا تقول لك لا تتابع، بل تقول لك (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) هذه الآية تعلمنا أن نتعلم، وتجعلنا نهتم بالعلم، وتجعل العلم هو رأس مالنا لنسير في الحياة. هذا النوع هو الأهم لذلك طال الكلام فيه.

أيضا هناك أنواع أخرى يحصل بها قفو من غير علم، وهو ما كان مشهورا في الجاهلية من **قذف ورمي المحصنين والمحصنات بالأكاذيب**، والدخول في نياتهم وأعراضهم، وهذا باب واسع وخطير، ووسائل الاتصال المليئة بالمجهولين؛ المنافقين والكفرة والفاجرين، الذين يتسمون بأسماء المسلمين، ويدخلون على المسلمين ويشوشون عليهم، تجد هؤلاء يتكلمون في أعراض المسلمين ويهيجون الأمور على المسلمين والمسلمات، وربما طعنوا في انساب الناس، وطعنوا في نياتهم، خلط في

هه النقطة، تجد طعن في الأنساب، وطعن في المقاصد والنيات، وطعن في دين هؤلاء، يرمون الرجال بالنساء، وهذا أمر حاصل من الجاهلية، وهو خلة من خلال الجاهلية؛ الطعن في أنساب الناس.

إذا رأوا بُعدا في الشبه بين الابن والأب، أو رأوا شبه من الابن لرجل آخر، رأوا لون مخالف للون الأب أو الأم، يتخرصون ويتكلمون ويتهمون من عندهم وهم جهلة! يجهلون كيف النسل ينزع في الشبه واللون إلى أصول من سلسلة الآباء والأمهات سواء القريبين أو البعيدين. وهذا في الحديث معروف، وانظر إلى علاج النبي ﷺ لمثل هذا الأمر، أنَّ رَجُلًا أتَى النبيَّ ﷺ، يريد أن ينتفي من ولده، فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، وُلِدَ لي غُلَامٌ أسْوَدُ، فَقالَ: "هلْ لكَ مِن إبِلٍ؟" قالَ: نَعَمْ، قالَ: "ما ألْوَانُهَا؟" قالَ: حُمْرٌ، قالَ: "هلْ فِيهَا مِن أوْرَقَ؟" قالَ: نَعَمْ، قالَ: "فأنَّى ذلكَ؟" كيف هذا اللون المخالف؟ كيف أسود وهم ليسوا بسود؟ قالَ الأعرابي وهو يفهم هذا: لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ، قالَ ﷺ: "فَلَعَلَّ ابْنَكَ هذا نَزَعَهُ". ونهاه عن الانتفاء فـ(لَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) يقول هذا يشبه فلان وكأنه ليس ولد هذا، ويؤكد، وهذا يدخل بداية الطعن، وأحيانا يكون اتهام بزنا، أو يكون اتهام بما هو أفظع منه.

يرون قوة علاقة بين زميلتين، بين صديقتين، بين جارتين، فتقفو ما ليس لها علم، فتقول أشعر أن هناك شيء غير طبيعي بينهم، مثلا، ويكفي هذه الكلمة أن تكون مصيبة عظيمة، بداية إلصاق تهمة الفاحشة، هذا أيضا من القفو ما ليس لنا به علم، وهو من الجرائم العظيمة التي وراءها هدم بيوت وتشويه لسمعة الناس.

أيضا يدخل في القفو بغير علم **شهادة الزور**، وهنا شهادة الزور تبتدئ، كما ذكر ابن عباس، قال: "لا تشهد إلا بما رأته عيناك وسمعته أذناك

ووعاه قلبك". فمن قال رأيت وهو لم ير، وسمعت وهو لم يسمع، وعلمت وهو لم يعلم فقد افترى وقفا ما ليس له به عليم. فالكذب من شهادة الزور، وهذا ما يحصل فيما ينشر بين الناس.

الناس تركب مركب رأيت وسمعت، وأنت تقول على قوله رأيت وسمعت، هو يكون لا رأى ولا سمع، وأنت تقول ما دام فلان رأى وسمع فأنا أقول رأيت وسمعت بناء على أنه هو رأى وسمع، وهكذا تتداول الكذبة، وهكذا يفسد المجتمع. لذلك في الشق الثاني من الآية يحذرنا رب العالمين أننا سنسأل عن أي شيء نسبناه لأعيننا بالرؤية، أو لآذاننا بالسماع، أو لأفئدتنا بالظنون، سنسأل عنه.

يدخل أيضا في القفو بلا علم **الغيبة**، كأنك تتكلم في قفاه لأنه من القفو، أما البهتان فهو أعلى وأعظم، لذلك في بعض الأخبار "مَن قَفا مُسْلِمًا بِما لَيْسَ فِيهِ حَبَسَهُ اللَّهُ في رَدْغَةِ الخَبالِ" وحسبه هذا العقاب.

وأعظم من ذلك أن يقْفو مسلمًا بما ليس فيه **يشي به عند من له سلطة عليه**، يتبع في ذلك الظنون أو من الحسد، أو من الحق. فيقفو بمعنى أن يتكلم في قفاه، فتدخل الغيبة في القفو وأعظم منها البهتان، وأعظم منها يدخل البهتان أو الكلام الحق الذي يشي به يريد الوشي به فينقله إلى ذي سلطان؛ ينقله إلى المدير أو الزوج بحيث يفسد عليه. هذه أنواع من القفو تفسد حياة المجتمع، كما هو واضح.

وتأتي أيضا صورة من صور القفو والمتابع والسير، وهي من الصور المشهورة اليوم والحقيقة عنها أنها خطيرة لأنها مغفول عن خطورتها وعن أنه قفو بلا علم، وهذه الصورة هي **متابعة الساقطين والسير وراءهم ونشر أفكارهم والتشبه بهم**، لأن القفو هو الاتباع. وجعل هؤلاء الساقطين والساقطات الذين انتشر شأنهم بأسباب من أهمها القفو، هذا

يتبع وهذا يتبع فيرتفع هؤلاء الساقطين، الذين في حكم العقلاء، لم ينفعوا الأمة لا في دين ولا في دنيا، ولم يكونوا إلا ناشرين للباطل، فمن قفو ما ليس لنا به علم أن نتابعهم.

واليوم المتابعة لها وضعها. فإذا تابع فلان وفلان، ورأى فلان يتابع فتابع مثله، وفلان ينصح بمتابعة فلان وكل هؤلاء من التافهين، بهذا يرتفع شأنه وتجري له مصالح دنيوية، وهذا الموضوع ليس شأننا، لكن لما يُرى أنه بهذه المكانة عند فلان وفلان وهؤلاء يتابعونه فيأتي أيضا من يتابع وراءهم، بهذا يكون كل أحد أتابعه في هذه الوسائل سأسأل عنه، (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) أنت أيها الإنسان تُسأل عمن تتابع، تُسأل عما تسنده إلى سمعك وبصرك وقلبك، فهذا أمر بالمحافظة على نفوسنا، وعدم فتح أبواب المتابعة بحيث تكون نتيجة المتابعة تشويش الذهن، وإغراق الإنسان نفسه في أفكار ليس له بها شأن، ودخوله في أبواب هو في غنى عن أن يدخل فيها.

ومن هنا نستطيع أن نفهم حديث النبي ﷺ، الحديث الذي يمثّل الطريق للوصول إلى مرتبة الإحسان، تصور أن النبي ﷺ يقول لنا: "من حُسنِ إسلامِ المرءِ تركُه ما لا يَعنيهِ" هذا أمر يقابل (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) بمعنى أن الإنسان يصل إلى مرتبة الإحسان إذا طبق هذا الأمر؛ وهو تركه ما لا يعنيه في دينه ودنياه، فما هو الشيء الذي يعنينا ونهتم به ويكون اهتمامنا به في ميزان حسناتنا، ويكون تركي لغيره سبب لأن أصل إلى درجة الإحسان، لا بد أن نكون في حالة من الوعي أن هذه المتابعات، وإطلاق الموضوع في مسألة المتابعة بحيث أننا نسمع ونرى ونشاهد أمور خاصة بالناس في حياتهم الداخلية، مأكلهم ومشربهم، إقامتهم وسفرهم، مشترياتهم ومقتنياتهم، هل هذا مما يعنينا في

شأن ديننا ودنيانا؟! بل هو قفو ما ليس لنا به علم، القفو يعني المتابعة، وما ليس به علم لا نعلم دليلا يدل على أن هذا ينفعنا.

في الشرع وردت أحاديث كثيرة تدلنا على الاشتغال بأمر نفسنا ونفع غيرنا منا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعليم والإصلاح، وليس أن نتدخل بما لا يعنينا. بمعنى أننا منهيين عن سؤال فلان وفلان عن أحوال خاصة به، هذا من كمال إيماننا، لما يحيك في نفسك سؤال، تريد أن تسأله كم عمرك أو كم وزنك، أو مصروفكم في كذا كم يكون، أو تسألها ماذا يفعل زوجك لما يخرج السوق معك، تريد أن تسأله عن تفاصيل في حياتها، فإذا حاك أمر في نفسك فسكت وأسكته، هذا يسبب كمال إيمانك، فتصور أنك تصل بهذه الخطوات إلى الإحسان لأنك تحافظ على سمعك وبصرك وفؤادك أن يمتلئ بخواطر الإيمان، وانظر لو كانت هذه الأسئلة والمتابعة قبل وقت الصلاة! في هذا الشهر المبارك تتسلى بين صلاة المغرب والعشاء بالنظر إلى هؤلاء الذين يعرضون حياتهم على الناس ولا يمانعون أن تسألهم أي سؤال عن حياتهم، وهذا عند البعض عذر؛ هم يريدون أن نرى حياتهم، هم يريدون أن نرى أحوالهم، هم يتركونا نسألهم أي سؤال، وكأن هذا عذر. لو تسليت بهذا، وهي تسلية ممنوعة، انظر كيف ستجول هذه الخواطر في وقت الصلاة في فؤادك! تسمع أقوالهم وتعرف أحوالهم، ويمتلئ سمعك بهذا وينظر بصرك إليهم ثم تريد الفؤاد يكون مع رب العالمين؟! يكون مستحضر الوقوف بين يدي الله ويفهم ما يقرأ! الإسلام ما حثنا على محاسن الأخلاق ولا نهانا عن هذا السيء من الأخلاق إلا من أجل أن يبقى هذا القلب سليما.

لا تعتقد أن الموضوع المتصل بالأخلاق لا علاقة له بالإيمان، أبدا والله! هذا باطل، كل أمر ونهي في عقيدتنا، في مسلكنا، في أخلاقنا،

نهايته الوصول إلى القلب السليم، وكل تفريط في أمر ونهي في عقيدتنا أو عملنا أو أخلاقنا فهو تكدير للقلب السليم.

النبي ﷺ اهتم اهتماما بالغا بأخلاقنا وممارساتنا التي نتخلق بها مع الناس ونتعامل بها معهم لأنها انعكاس من عقيدتنا، كان يحثّنا على فضائل الأخلاق ويمدحها ﷺ، وربنا في كتابه قد أفاض علينا بهذه الخيرات، حثنا على محاسن الأخلاق ومدحها، حذرنا من مساوئ الأخلاق وذمّها. فلما نهانا أيها المؤمنون لا تقفوا ما ليس لكم به علم، لا تتابعوا أمر لا تعلمون أنه في دينكم ينفعكم، ما عندك علم بصحة ما تقول، ما عندك علم بجدارته أن يكون قائدا أنت تتبعه في أفكارك، كيف نسمح بأن يتكلم أي أحد أي كلام يشغل فؤادنا عن فهم كلام رب العالمين، ولا تقل لا تؤثر، الخواطر، كما قال ابن القيم، كالمصيدة، بذور يلقيها الشيطان في نفسك، وهذه الخواطر تأتي من هذا الكلام، يلقيها الشيطان في نفسك مثل البذور التي تلقى للطير حتى إذا أتى ليأكلها صادوه، وهذا ما يحصل بالضبط، أتت الكلمة ألقت بذرة الخاطرة، دارت الخاطرة في النفس بناء على كلام فلان وكلام علان، فتشتتت النفس.

وهذه الآية في سورة الإسراء من تفسيرها حديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، من كمال محاسن إسلام المرء ومن تمام إيمانه ابتعاده عن شيء يعلم أنه لا يخصه، لا يهمه، لا يفيده في دينه ولا في دنياه فائدة حقيقية من الأقوال والأفعال. لا تتدخل في شؤون غيرك، لا تتطفل على غيرك، هو يعرض نفسه، هذا شأنه، أنت ابق واضعا الحجاب بينك وبين شأنه. فيحذر من فضول المباح من الكلام والأفعال والأحوال، فكيف بأن ندخل في شأن غيرنا من الخلق، والله المستعان.

هناك أمور لا تعنينا فلا نتابعها ولا نتبع أهلها ونكون حريصين ألا ندخل أبوابا تفسد علينا ديننا، ولنسمع هذا التحذير بأفئدتنا (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) فلنحذر حذرا عظيما، وهنا ننظر إلى هذه الأعضاء التي ستُسأل يوم القيامة عن شيء أنت قلت أنك سمعته، وأنت قلت أنك رأيته وأنت لم تسمع ولم تر، هذا من السؤال، كان عنه مسؤولا: كان كل من ذك مسؤول عن نفسه، السمع سيسأل عن نفسه، البصر سيسأل عن نفسه، الفؤاد سيسأل عن نفسه، فأصبحت هذه الأعضاء كأنها عقلاء فتكون في هذا الموقف شاهدة على أصحابها. وكما رأينا أن هناك أنواع من قفو ما ليس لنا به علم، ستكون أنواع من هذه الأسئلة، فإذا قلت سمعت ولم تسمع، أبصرت ولم تبصر، ماذا سيحصل؟ سيُسأل السمع يوم القيامة هل سمعت هذا الذي قال فلان أنه سمعه، فينفي فيشهد على صاحبه! هل أبصرت ما قال فلان أنه أبصره فينفي فيشهد على صاحبه.

لو تكلم فلان في قفا فلان سواء كان غيبة أو بهتان أو وشى به، سيسأل فلان تكلم عن فلان في قفاه؟ يقول اللسان نعم، يسأل الأذن هل سمعت هذا؟ فيشهد، وتشهد الجوارح على صاحبها أنه إما فعل الباطل، أو اعتقده، أو نظر إليه، أو تابعه. (كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) سيسألون عنك وعن أفعالك معه.

وهنا يحسن استحضار ما أخبر عز وجل به أنه يكون يوم القيامة (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ذكر بعض أهل العلم أن الله يخلق لهذه الأعضاء منطقًا تنطق به وتتكلم به، هذه الجوارح تنطق وتخبر أن فلان استخدمني فيما لم أُخلق له! كأن السؤال للأعضاء، هل استخدمك هذا الإنسان فيما خُلقت له؟ فتعطى الأعضاء القدرة على أن تجيب، هل استخدمتها فيما خلقت له أو لا. فيسأل السمع هل سمع بك

الحق؟ أم سمع بك الباطل وما لا شأن له به؟ ويسأل البصر هل أبصر بك الحق وتأمله؟ أم أبصر ما يضره ولا ينفعه وما لا علاقة له به؟ وقد نهينا (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) وهنا سنسأل عما نبصر. وكذلك يسأل الفؤاد هل فكر فيما يجب أن يفكر فيه وتيقن؟ أم أنه أدخل في فؤاده ما لا ينفعه وأكثر التفكير فيه، وكثرت خواطره في الباطل، وهذا كله سيحاسب عنه العبد.

فلذا ابن آدم الله وهبه هذه الأدوات من أجل أن يشتغل بالله، وليس من أجل أن ينشغل عن الله. فلنراجع موقفنا من هذه الأدوات.

ولابن القيم كلام عن هذه الأدوات وحكمة الله في خلقها ننقله للفائدة:

جعل الله بِحِكْمَتِهِ كل جُزْء من أجزاء ابْن آدم، ظاهِرَة وباطنة، آلَة لشَيْء إذا اسْتعْمل فِيهِ فَهو كَماله، فالعين آلَة للنَّظَر والأُذن آلَة للسماع والأنف آلَة للشم واللِّسان آلَة للنطق، والفرج للنِّكاح واليَد للبطش والرجل للمشي والقلب للتوحيد والمعرفة والروح للمحبة، والعقل آلَة للتفكر والتدبر لعواقب الأُمُور الدِّينِيَّة والدنيوية، وإيثار ما يَنْبَغِي إيثاره وإهمال ما يَنْبَغِي إهماله، أخسر النّاس صَفْقَة من اشْتغل عَن الله بِنَفسِهِ، بل أخسر مِنهُ من اشْتغل عَن نَفسه بِالنّاسِ.

فِي السّنَن من حَدِيث أبي سعيد يرفعهُ: "إذا أصبح ابْن آدم فَإِن الأعْضاء كلها تكفر اللِّسان تَقول اتَّقِ الله فَإِنَّما نَحن بك فإن اسْتَقَمْت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا". قَوْله تكفر اللِّسان قيل مَعْناهُ تخضع لَهُ بمعنى أن الجوارح كلها تخضع للسان.

... وإنَّما خضعت للسان لِأَنَّهُ بريد القلب وترجمانه والواسطة بَينه وبَين الأعْضاء. وقَوْلها: "إنَّما نَحن بك" أي نجاتنا بك وهلاكنا بك ولِهَذا قالَت فَإن اسْتَقَمْت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا.

كلام ابن القيم يوصلنا إلى نهاية الموضوع، أن هذا المطلوب منا، ألا نستخدم أدواتنا، سمعنا وبصرنا وفؤادنا وبقية أعضاءنا، لنتابع ما ليس لنا به علم.

بل لنفرغ أنفسنا لطلب العلم ومعرفة الحق ولمنع القلب من خواطر السوء.

لنفرغ نفسنا للعقائد الصحيحة بطلب العلم.

لنفرغ أنفسنا للقوال الطاهرة والبعد عن الكذب والبعد عن قذف المحصنات.

لنفرغ نفسنا لنشر الخير بين المسلمين بالكلام الطيب والأمر بالمعروف والنهي عن النكر وتعليم الخلق بدلا من أن تكون هذه الأدوات لغيبة أو نميمة أو لإخراج ما في هذه النفوس من حسد.

نعوذ بالله أن نستخدم أدواتنا وقدراتنا في مثل هذه الأمور. لا تستخدم أدواتك في متابعة التافهين، بل وفرها للعلم برب العالمين، وفرها لطلب الحق، فإنها أمانات ستُسأل عنها.

نسأل الله عز وجل أن يثبتنا على الحق وأن يقبضنا عليه وأن يجعلنا من أهل عفوه فإن الخطأ لا بد منه، وكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابين، نسأل الله عزوجل من أولئك التائبين الذين يشملهم رب العالمين

بعفوه، وهذا شهر العفو نسأل الله أن يعفو عنا، اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.